عمرو بن عبيد والخليفة المنصور

قال اسحاق بن المفضل الهاشمى : إنى لعلى باب الخليفة المنصور يوما ، وإلى جانبى عمارة بن حمزة ، إذ طلع عمرو بن عبيد على حمار ، فنزل عن حماره ثم دفع البساط برجله ، وجلس دونه ، فالتفت إلى عمارة وقال: لاتزال بصرتكم ترمينا منها بأحق ، فما أتم كلامه حتى خرج الربيع الحاجب وهو يقول : أبو عثمان عمرو بن عبيد قال : فوالله ما دل على نفسه حتى أرشد إليه ، فاتكأ يده ثم قال له :

أجب أمير المؤمنين جعلت فداك فمر متوكأ عليه ، فالتفت إلى عمارة .

فقلت له : إن الرجل الذى استحمقته قد أدخل وتركنا .

فقال : كثيراً ما يكون ذلك .

فأطال اللبث ثم خرج الربيع وهو متوكىء عليه. والربيع يقول: ياغلام حمار أبى عثمان ، فما برح حتى أتى بالحمار ، فأقره على سرجه ، وضم إليه نشر ثوبه واستودعه الله .

فأقبل عمارة على الربيع فقال : لقد فعلتم اليوم بهذا الرجل ما لو فعلتموه بولى عهدكم لقضيتم حقه !

قال : فما غاب عنك مما فعل به أكثر وأعجب ! قال عمارة : فإن اتسع لك الحديث فحدثنا .

فقال الربيع : ما هو إلا أن سمع الخليفة بمكانه فما أمهل حتى أمر بمجلس ففرش لبودا ، ثم انتقل إليه ومعه المهدى ولى عهده ، ثم أذن له ، فلما دخل عليه سلم بالخلافة فرد عليه ، وما زال يدنيه حتى اتكأ فخذه وتحفى به ثم سأله عن نفسه وعن عياله يسميهم رجلا رجلا وامرأة امرأة ، ثم قال : يا أبا عثمان عظنا ، فقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم : والفجر وليال عشر ، والشفع والوتر والليل إذا يسر : ومر فيها إلى آخرها وقال : إن ربك يا أبا جعفر لبالمرصاد قال : فبكى المنصور بكاء شديداً كأنه لم يسمع تلك الآيات إلا تلك الساعة ثم قال . زدنى . فقال : إن الله أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشتر نفسك منها

بعضها ، وأعلم أن هـذا الأمر الذى صار إليك إنما كان فى يد من قبلك ثم أفضى إليك . وكذلك يخرج منك إلى من هو بعدك ، وإنى أحـذرك ليلة تمخض صبيحتها عن يوم القيامة !!

قال : فبكى أشد من بكائه الأول وكان فى المجلس سليمان بن مجاهد فقال: رفقاً بأمير المؤمنين فقد أتعبته ؟

فقـال له عمرو بن عبيد : بمثلك ضاع الأمر ، وانتشر الفساد ، لا أبالك وماذا على أمير المؤمنين ان بـكى من خشية الله : ثم التفت إلى أمير المؤمنين وقال :

إن هؤلاء اتخذوك سلماً لشهواتهم ، فاتق الله فانك ميت وحدك ، ومحاسب وحدك ، ومبعوث وحـدك ، ولن يغنى عنك هؤلاء من ربك شيئاً .

فقال له المنصور : أعنى بأصحابك أستغن عنهم ، فقـال له : اظهر الحق يتبعك أهله .

فقال له : قـد أمرت لك بعشرة آلاف درهم تستعين بها على زمانك ..

فقال : لا حاجة لى فيها . فقـال المنصور والله لتأخذنها . فقال عمرو : والله لا آخذنها . فقال له المهدى يحلف أمير المؤمنين وتحلف ، ؟ فأقبل عمرو على المنصور وقال : من هـذا الفتى ؟ فقال : هذا ابنى محمد ، وهو المهدى ولى العهد . فقال: والله لقد سميته إسماً ما استحقة بعمل ، ولم تعلمه الأدب .

ثم قال المنصور : يا أبا عثمان . هل من حاجة ؟ قال : نعم . يرفع هـذا الطيلسان عنى — وكان المنصور طرح عليه طيلسانا حين دخل عليه .

ثم قال له المنصور : لا تدع زيارتنا يا أبا عثمان . فقال : نعم ولكن لا تعطينى حتى أسألك . ولا تدعنى حتى آتيك .

فقال المنصور : إذن لا تأتينا أبداً ولا تطلب شيئا . ثم ودع المنصور ونهض . فلما ولى أتبعه بصره وقال :

كلكم طالب صيد
كلكم يمشى رويـد
غير عمرو بن عبيد